

التيارات الفكرية المغالية وأثرها في صناعة العقلية الشيعية

(المغيرة بن سعيد انموذجا)

أ. د. سامي جودة بعيد الزيدي

جامعة ذي قار / مركز ذي قار للدراسات التاريخية

تاريخ الاستلام: 2024/03/30، تاريخ القبول: 2025/02/18، تاريخ النشر: 2025/04/02

الملخص :

تناول البحث دور التيارات الفكرية المغالية في صناعة العقل الشيعي ، من خلال تأثيرات الغلاة في المنظومة الفكرية الشيعية ، كما ان البيئة التي انطلق منها التشيع خضعت لتأثيرات فكرية قديمة ، كانت الغنوصية القديمة والافكار الباطنية التي آمنت بها الاديان الايرانية ، والفلسفات الاغريقية القديمة ، لها الاثر في صياغة فكر عرفاني باطني في تلك البيئة ، مما جعلها تختلط فيما بينها ، وما انتجته المنظومة الاسلامية من افكار فيما بعد الفتح الاسلامي . لذا نجد التأثير الباطني واضح في التشيع المغالي فيما بعد .

Abstact: The research dealt with the role of exaggerated intellectual currents in creating the Shiite mind, through the influences of extremists in the Shiite intellectual system, and the environment from which Shiism began was subject to ancient intellectual influences. Ancient Gnosticism and the esoteric ideas that Iranian religions and ancient Greek philosophies believed in had an impact on Formulating an esoteric mystical thought in that environment, which made it mixed with each other and with the ideas that the Islamic system produced after the Islamic conquest. Therefore, we find a clear esoteric influence in exaggerated Shiism later on

المقدمة :

كان لليمنين دورهم في حركات الغلو التي ظهرت في الكوفة ، ولا يمكن ان نغفل دور الكوفة في الغلو، ولعل جغرافية الغلو كانت قد رسمت حدودها من هناك . وكان اول ظهور لها على يد عبد الله بن سبأ اليماني الذي سكنها وعمل على بث افكاره المغالية . وعلى الرغم من الاختلاف في الآراء حول شخصية ابن سبأ ، الا ان ذلك لا يستبعد وجود بداية لظهور تلك الحركة على يد رجل يمني ، آمن بالأفكار الباطنية ، واخذ ينشرها بين الشيعة هناك ، وقد تلاقفها اليمانية وبثوها بينهم ، ثم توسعت تلك الافكار واخذت تنتوع . والمثير للانتباه ان اغلب افكار الغلو وجدت ميدانها الرطب وسط التجمعات الكوفية ، مثل ما سوف يتضح .

انتشار الافكار الغنوصية في العراق :

انشأت الكوفة على يد الفاتحين المسلمين ، سنة 15هـ ، ولم تكن قبل مدينة او مركزا حضاريا ، وقد سبقتها مدن عراقية مهمة سكنتها اقوام مختلفة ، فالعراق قبل دخول المسلمين اليه ، سكنته اقوام عدة من مختلف القوميات والاديان ، وقد تلاقحت ها هنا الافكار والجينات لتنشأ شعبا له مزاجا مختلفا ذا ثقافة خاصة ومزاج خاص ، ربما يختلف بعض الشيء عن غيره من المجتمعات والثقافات .

سبق تمصير الكوفة، انشاء مدينة سلوقية ، عام (312 ق.م) من قبل خليفة الاسكندر المقدوني سلوقس ، الذي كانت دولته تمتد من العراق وسوريا ومصر حتى غرب اسيا ، وقد انشأت سلوقية على الجانب الغربي من دجلة على انقاض مدينة (أوبس) البابلية ، حيث سكنها مجموعة كبيرة من اليونانيين الذين كانوا بصحبة الاسكندر المقدوني عندما غزا اسيا ، ثم سكنها من القوميات الاخرى ، فقد نقل اليها سلوقس عدد من البابليين ممن يعملون بالصناعة والتجارة ، كما سكنها عدد من السوريين والبارثيين والهنود والارمن ، وكانت تضم عدة اديان واتجاهات معرفية وفلسفية . وقد كانت سلوقية مركزا للحضارة الهلنستية ، فقد اصبحت واحدة من مراكز

الفلسفة الرواقية ، التي كانت قد نشأت في اليونان في القرن الثالث قبل الميلاد، ومن فلاسفتها ديوجين المعروف بديوجين البابلي الرواقي، كما انتشرت فيها حلقات تدريس الفلسفة الشكوكية، والأفكار الغنوصية ⁽¹⁾ ، سيما ما جاء مع الاغريق ، او ما انتقل اليها عبر الديانات الايرانية القديمة. وكان لليونانيين فيها مركز القيادة ، كما شهدت تعزيزا يونانيا جاء من الهجرات المستمرة اليها . وبعد سقوط الدولة السلوقية سنة (141 ق.م) على يد الفرثيين القادمين من ايران ، الا انها ظلت استنادا الى ما ذكره المؤرخ اليوناني بلينيوس الاكبر من ان عدد سكانها من الاغريق 600 الف ويحكمهم مجلس شيوخ يتكون من 300 شخص . (هالم ، 2010، ص 12) .

في الجهة المقابلة لسلوقية انشأ الفرثيون على الجانب الشرقي من دجلة مدينة طيسفون ⁽²⁾ ، التي عرفت بالمدائن ، واسماها العرب الفاتحين، فيما بعد ، (بسلمان باك) أي سلمان الطاهر ، نسبة الى الصحابي سلمان الفارسي ، الذي كان عاملا عليها ايام عمر بن الخطاب . وقد جعلها الفرس عاصمة شتوية لملوكهم .

¹ الغنوص : هي كلمة يونانية الاصل تعني المعرفة ، غير انها اخذت بعد ذلك معنى اصطلاحيا هو التوصل بنوع من الكشف والالهام الى المعارف العليا ، او هو تذوق تلك المعارف تذوقا مباشرا ، بأن تلقى في النفس القاء ، فلا تستند على الاستدلال او البرهنة العقلية . النشار ، نشأة الفكر الفلسفي ، ج 1 ، ص 186 .

² طيسفون : او المدائن العظام ، كتب يزديجرد بن مهبندار الكسروي رسالة في تفضيل بغداد فقال فيها: ولقد كنت أفكر كثيرا في نزول الأكاسرة بين أرض الفرات ودجلة هذا ان الإسكندر لما سار في الأرض ودانت له الأمم وبنى المدن العظام في المشرق والمغرب رجع إلى المدائن وبنى فيها مدينة وسورها وهي إلى هذا الوقت موجودة الأثر وأقام بها راغبا عن بقاع الأرض جميعا وعن بلاده ووطنه حتى مات ، قال يزديجرد : أما أنوشروان بن قباد وكان أجل ملوك فارس حزما ورأيا وعقلا وأدبا فإنه بنى المدائن وأقام بها هو ومن كان بعده من ملوك بني ساسان إلى أيام عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، وقد ذكر في سير الفرس أن أول من اختط مدينة في هذا الموضع أردشير بن بابك ، قالوا : لما ملك البلاد سار حتى نزل في هذا الموضع فاستحسنه فاخطت به مدينة ، قال : وإنما سميت المدائن لان زاب الملك الذي بعد موسى ، عليه السلام ، ابتناها بعد ثلاثين سنة من ملكه وحفر الزوابي وكورها وجعل المدينة العظمى المدينة العتيقة ، فهذا ما وجدته مذكورا عن القدماء ولم أر أحدا ذكر لم سميت بالجمع ، والذي عندي فيه أن هذا الموضع كان مسكن الملوك من الأكاسرة الساسانية وغيرهم فكان كل واحد منهم إذا ملك بنى لنفسه مدينة إلى جنب التي قبلها . وسماها باسم ، فأولها المدينة العتيقة التي لزاب ، كما ذكرنا ، ثم مدينة الإسكندر ثم طيسفون ثم مدائنها ثم اسفانبر ثم مدينة يقال لها رومية فسميت المدائن بذلك ، والله أعلم ، وكان فتح المدائن كلها على يد سعد بن أبي وقاص في صفر سنة 16 في أيام عمر بن الخطاب ، رضي الله عنه ، قال حمزة : اسم المدائن بالفارسية توسفون وعربوه على الطيسفون والطيسفونج وإنما سمتها العرب المدائن لأنها سبع مدائن بين كل مدينة إلى الأخرى مسافة قريبة أو بعيدة ، وأثارها واسماؤها باقية . ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج 5 ، ص 74-75 .

انّ انشاء طيسفون قلل من شأن سلوقية ، وقد دفع الكثير من سكانها الى الانتقال الى المدينة الجديدة ، كما سمح لمجيئ عدد من الفرس للسكن فيها ، سيما اولئك الذين كانوا يعتقدون بعقائد باطنية ، كالمانوية والمزدكية والديصانية . وقد تشكلت الاديان والمذاهب والاتجاهات فيها .

وبعد مجيئ العرب لفتح العراق وجدوا امامهم جملة من المذاهب والاديان والاعتقادات . فبالرغم من ان الفاتحين العرب لم يتخذوا المدائن مقرا لهم ، فقد بحثوا عن موقع اكثر ملائمة مع مزاجهم الصحراوي، واتخذوا الكوفة معسكرا لهم ، ثم مصروها بعد ذلك ، وقسمت على العرب الفاتحين بحسب القبائل ، ثم اخذت الكوفة تدريجيا بالّمعان ، فقد تحول اليها الكثير من سكان طيسفون (المدائن) واغلبهم من الفرس والمسيح والارمن وبقايا اليونانيين الذين سكنوا سلوقية ، واختلطوا بالعرب الفاتحين وكانوا يمارسون المهن الحرفية ، والتجارة ، وقد نقلوا معهم اعتقاداتهم ، وافكارهم ، وبقايا ما علق في اذهانهم من دياناتهم الباطنية القديمة ، ليمزجوها بالإسلام ، ليبدأ تشكيل جديد من غنوصية ايرانية مسيحية يونانية ، وإسلام جديد . فتصبح الكوفة مجالا للآراء والافكار والجدل .

لم تكن الديانات الايرانية الثنوية بعيدة عن العراق ، وفي بابل تحديدا ، امتزجت العديد من الغنوصيات ، فقد كان ماني (3) قد انتقل الى بابل وكان ينزل المدائن ، وكانت آرائه تبث وانصارا واتباعا تدين بها . (ابن النديم ، 1997 ، ص 392) . كما كان لمزدك (4) حضور في

3 ماني بن فاتك الحكيم الذي ظهر في زمان سابور بن اردشير وقتله بهرام بن هرمز بن سابور وذلك بعد عيسى ابن مريم عليه السلام احدث دينا بين المجوسية والنصرانية وكان يقول بنبوة المسيح عليه السلام ولا يقول بنبوة موسى عليه السلام ، وكان في الأصل مجوسيا عارفا بمذاهب القوم ، وزعم ان العالم مصنوع مركب من أصلين قديمين أحدهما نور والآخر ظلمة وانهما أزيان لم يزاالا ولن يزاالا وانكر وجود شئ الا من أصل قديم وزعم انهما لم يزاالا قويين حساسين دراكين سميعين بصيرين وهما مع ذلك في النفس والصورة والفعل والتدبير متضادان وفي الحيز متحاذيان تحاذي الشخص والظل . الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج 1 ، ص 244 .

4 مزدك هو الذي ظهر في أيام قباد ، والد انوشروان ودعا قباد إلى مذهبه فاجابه ، واطلع انوشروان على خزيه وافترائه فطلبه فوجده فقتله . حكى الوراق ان قول المزدكية كقول كثير من المانوية في الكونين والأصلين الا ان مزدك كان يقول ان النور يفعل بالقصد والاختيار والظلمة تفعل على الخبط والاتفاق والنور عالم حساس والظلام جاهل أعمى وان المزاج كان على الاتفاق والخط لا بالقصد والاختيار وكذلك الخلاص انما يقع بالاتفاق دون الاختيار وكان مزدك ينهى الناس عن المخالفة والمباغضة والقتال ولما كان أكثر ذلك انما يقع بسبب النساء والأموال أحل النساء وأباح الأموال وجعل الناس شركة فيهما كاشتراكهم في الماء والنار والكأ وحكى عنه انه امر بقتل الأنفس ليخلصها من الشر ومزاج الظلمة ومذهبه في الأصول والأركان انها ثلاثة الماء والأرض والنار ولما اختلطت حدث عنها مدبر الخير ومدبر الشر فما كان من صفوها فهو مدبر الخير وما كان من كدرها فهو مدبر الشر . الشهرستاني ، الملل والنحل ، ج 1 ، ص 249 .

المدائن ، وكانت الديصانية ⁽⁵⁾ حاضرة ، ايضا ، كغيرها من الديانات القديمة . وكانت الفرقة المندائية من الفرق الغنوصية الحاضرة في المشهد العقائدي العراقي اذ سكن الكثير من الصابئة المندائيون في جنوب العراق في البطائح قال ابن النديم عنهم : (وهؤلاء قوم كثيرون في البطائح) (ابن النديم ، 1997 ، ص 403) . وفي الكوفة فيما بعد، وكانت اولى العقائد التي قابلها المسلمون الفاتحين ، وكانت عقائدهم تتلخص : (فيما وراء الملكوت والكواكب ، يوجد عالم النور ، حيث تستقر الحياة ، ومن هذا العالم ، عالم النور ، اشتقت روح ادم وارواح أبنائه من الماندائيين ، وفي اسفل ، مملكة الظلام في اسفل سافلين ، نزل المندائيون الى الارض ولن يخلصهم الا كائن الهي ساعة الموت ، يخلص الروح من البدن الكثيف ، ويعيدها الى عالم النور . (النشار ، 1977م، ص198) .

انتشار الغنوصية في الكوفة :

بعد ان عرفنا كيف امتزجت الافكار في الكوفة نتيجة لتعدد الاتجاهات والافكار فيها فإن الغنوصية بما كانت تحتويه من اراء وافكار، كانت قد انتشرت في اغلب الديانات القديمة ، ولا يخلو دينا من الاديان السابقة عن وجود افكارا غنوصية فيه ، تتجه الى نحو عالم الباطن ، وان العالم المتعالي لا يمكن ان تدركه الحواس ، وان النور الذي هو الاصل ، قديم ، وان الظلمة هي محدثة ، وان الامتزاج بين الروح (النور) والظلمة (الجسد) امتزاجا قسريا يجب ان يسعى الانسان الى الخلاص منه والعودة الى عالم النور، الاصل الاول للخير ، ومفارقة الظلام عالم الفوضى والمفاسد، ولا يتم هذا الخلاص الا عبر مجاهدات يقوم بها الانسان وطقوس يتطهر بها من تلك الخطيئة ، التصاق النور بالظلمة ، الروح / بالجسد ، وتخليص النور المحبوس في عالم المادة والعودة به الى عالمه الاول . هذه الافكار كانت هي السائدة في اجواء العراق بابل وما

⁵ وهم اصحاب ديسان، وهو قيل ماني ، والمذهبان قريب بعضهما من بعض وانما بينهما خلف في اختلاط النور بالظلمة . فان الديصانية اختلفت في ذلك على فرقتين ، فرقة زعمت أن النور خالط الظلمة باختيار منه ، ليصلحها فلما حصل فيها ورام الخروج عنها ، امتنع ذلك عليه . وفرقة زعمت أن النور أراد ان يرفع الظلمة عنه لما أحس بخشونتها وننتها ، شاكها بغير اختياره ، ومثال ذلك . ان الانسان إذا أراد ان يرفع عنه شيئا ذا شظايا محددة دخلت فيه ، فكلمها دفعها ازدادت ولوجا فيه . وزعم ابن ديسان ، ان النور جنس واحد . والظلمة جنس واحد . وزعم بعض الديصانية ، ان الظلمة أصل النور ، وذكر ان النور حي ، حساس ، عالم . وان الظلمة بضد ذلك ، عامية ، غير حاسة ولا عالمة ، فتكارها . وأصحاب ابن ديسان بنواحي البطائح كانوا قديما ، وبالصين وخراسان أمم منهم متفرقون . لا يعرف لهم مجمع ولا بيعة . والمندائية كثير جدا . ولابن ديسان ، كتاب النور والظلمة . كتاب روحانية الحق . كتاب المتحرك والجماد . وله كتب كثيرة . ولرؤساء المذهب في ذلك أيضا كتب ولم تقع إلينا . ابن النديم ، الفهرست، ص 402 .

حولها . ولم يكن الاسلام بعد قد خرج من النص الى الشروحات ، وكل ما كان يستعين به على حل اشكالاته البسيطة هو الحديث والسيرة ، فما ان حط قدمه في العراق حتى التصق بتلك الآراء والافكار ، فانتشرت بين المسلمين الفاتحين ، والذين كان اغلبهم من اليمن التي كانت محطة من محطات انتشار الافكار الغنوصية قبل ظهور الاسلام . وقد كشف لنا الجاحظ عن ان مسيلمة قبل التنبئي طاف في الاسواق التي بين دور العجم والعراق والتي كانت للتسوق والمبيعات، كسوق الابلّة وسوق بقّة وسوق الانبار، وسوق الحيرة يلتبس الحيل والنيرنجات واختيار المنجمين والمتنبئين) . (الجاحظ، 1965م، ص369-370). ويبدو واضحا ان مسيلمة تعلم الحيل والافكار الغنوصية هناك وعاد بها الى اليمن . وقد آمن به عدد كبير من اهل اليمن وكانت لهذه الافكار اثرها ، فيما بعد ، في مواجهة الاسلام . وقد انتقلت هذه الافكار الغنوصية مع الفاتحين من اليمانيين ، اذ قتل عبد الله بن مسعود غنوصيا من اهل اليمن يدعى ابن النواحة بعد ان تبين له انه مازال هو وجماعة من اهل اليمن يؤمنون بأفكار مسيلمة وكانوا يقولون بأنه رسول الله فأخرجه ابن مسعود وقتله واستتاب اصحابه وكان عددهم مائة وسبعون فضمنتهم عشائريهم . (ابن حجر، 1971م، ص384) .

دخل الاسلام الكوفة ، وقد وجد الزرادشتية متحكمة في فارس والعراق ، كما وجد بيوت النار منبثة هنا وهناك ، وقابل المانوية وغنوصها ، وقد عادت المانوية الى فارس علانية بعد دخول العرب أرض فارس ، ثم وجد المزدكية متمكنة راسخة كما وجد المندائية ايضا في البصرة . (النشار ، 1977م، ص200) .

يذكر ابن النديم ، ان الرياسة والامامة للمانوية لا تعقد الا في بابل ، وان المانوية استمرت حتى ان خالد بن عبد الله القسري ، والي الوليد بن عبد الملك على الكوفة ، كان يعنا بهم، وان ابن النديم اتهمه بالمانوية واتهم الجعد بن درهم بذلك وقال ان البرامكة ما عدا خالد كانوا على المانوية ، وقد استمر وجودهم حتى ايام المقتدر العباسي، وكان محمد بن عبيد الله كاتب المهدي منهم كما قال ان المأمون مانويا ، وكذب ذلك ، وعد طائفة كثيرة على مذهبهم.(ابن النديم ، 1997 ، ص401) .

انتشرت المانوية والديصانية والمرقونية تحملها الى العالم الاسلامي بقايا فارسية ، عششت وفرخت في الكوفة ، ثم انتشرت منها الى بغداد ، وكان طريقها (التشيع الغالي) الذي ظهر في الكوفة . (النشار ، 1977م، ص203) . وقد قام الشيعة الامامية بنقض الاتجاهات الغنوصية ، وخاصة الفارسية منها ، وقد تركت مناقشات كثيرة بين الامام الصادق وبين كثيرين من المانوية (النشار ، 1977م، ج3 ، ص2011) .

ويذهب محمد عابد الجابري الى ان الكوفة والمدائن والحيرة قد عرفت مراكز هرمسية (6) قبل الفتح فأصبح تراثها وتراث القبائل المنتقلة اليها من اليمن يشكل (المعتقدات القديمة) في هذه الناحية التي سرعان ما بدأ توظيفها في الصراع السياسي ، ولابد من التأكيد هنا على حضور المعتقدات اليهودية في هذا التراث خصوصا وقد كانت اليهودية المتهرمة منتشرة في اليمن وبين سكانها منذ عصور سابقة . (الجابري ، 2000م ، ص278) .

والواضح من الاخبار ان للغلو في الكوفة اماكن يجتمع فيها الغلاة يتحدثون في امورهم ، وكانت هذه الاماكن لامرأتين متشيعتين من الكوفة من همدان ، فقد روى الطبري، أن هند بنت المتكلفة الناعطية كان يجتمع إليها كل غال من الشيعة فيتحدث في بيتها وفي بيت ليلي بنت قمامة المزنية وكان أخوها رفاعة بن قمامة من شيعة علي وكان مقتصدا (غير مغالي) فكانت لا تحبه . (الطبري ، 1963م، ج4 ، ص567) . وكانت هناك مراكز اخرى غير تلك الاماكن التي كانت تدار من قبل الناعطيتين ، فقد كانت هناك مراكز في الكوفة والمدائن وغيرها، وكانت مأوى للهربان والمتهمسين ولغيرهم من ادعياء النبوة . (الجابري ، 2000م ، ص278) .

وهنا لابد من القول ان الغلو كان قد انتشر بين قبائل الكوفة الذين كانوا اغلبهم قبائل اليمن ، والمتأثرين بغنوصية الفرس عندما سيطروا عليها قبيل الاسلام ، ثم ان مسيلمة نقل اليهم افكارا

6 الهرمسية : هي مجموع العلوم الباطنية ، كعلم النجوم ، والخيمياء ، وتؤكد التقاليد الاسلامية ان هرمس هو النبي ادريس ، قال أبو معشر هو أول من تكلم في الأشياء العلوية من الحركات النجومية وأن جده كيومرث وهو آدم علمه ساعات الليل والنهار وهو أول من بنى الهياكل ومجد الله فيها وأول من نظر في الطب وتكلم فيه وأنه ألف لأهل زمانه كتبا كثيرة بأشعار موزونة وقواف معلومة بلغة أهل زمانه في معرفة الأشياء الأرضية والعلوية . ابن ابي اصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص31-33 .

تأثر بها من المدائن وبلاد فارس . كما ان القبائل كانت قد تأثرت بالأفكار الغنوصية والهرمسية التي كانت منتشرة في المدائن عند الفتح وقد تحول الموالي فيما بعد الى الكوفة .

استفاد المختار من وجود هذه الاجواء التي ساعدته على نشر افكاره ، وتحشيد أولئك لصالحه ، فنشر فيهم فكرة المهدي ، وادعى ان محمد بن الحنفية هو الامام المهدي ، وسمي اتباعه بالكيسانية . (النوبختي ، 2012م ، ص58-59) . ثم توالى افكار الغلو منذ ظهور عبد الله بن سبأ الذي يعتقد محمد عابد الجابري ، انه شخصية حقيقية ولا يمكن عدها شخصية (خرافية اسطورية) ، على الرغم من انه قال : (ان عنصر الاسطورة حاضر في هذه الرواية بدون شك .) (الجابري ، 2000م ، ص278) . ثم يقرر انه شخصية يهودية اسلم زمن عثمان او قبله، ونشر (فكرة الوصي) ثم صار يحوم حول علي بن ابي طالب، بعد ان تولى الخلافة، ولكن عندما بدأ يغالي في حقه نفاه الى المدائن . وعندما اغتيل علي ، نشر فكرة الرجعة والوصية، فكان بذلك الاصل الاول (للغلو) في حق علي ، وسوف تقوم على افكاره هذه جملة من الآراء والعقائد في الامام والامامة اكتسبت طابعا ميثولوجيا. (الجابري ، 2000م ، ص221) .

ويطرح ابن ابي الحديد سؤالا ، لعله من الاهمية الاجابة عنه ، ويكفيها عناء الاجابة فيجيب عليه متطوعا ، فيسأل (لماذا غلا الناس في أمير المؤمنين عليه السلام ، فادعوا فيه الإلهية لإخباره عن الغيوب التي شاهدوا صدقها عيانا ، ولم يغلوا في رسول الله صلى الله عليه وآله فيدعوا له الإلهية ، وأخباره عن الغيوب الصادقة قد سمعوها وعلموها يقينا ، وهو كان أولى بذلك ، لأنه الأصل المتبوع ، ومعجزاته أعظم ، وأخباره عن الغيوب أكثر) ؟ .

ويجيب ابن ابي الحديد على ذلك بقوله : (إن الذين صحبوا رسول الله صلى الله عليه وآله ، وشاهدوا معجزاته ، وسمعوا إخباره عن الغيوب الصادقة عيانا ، كانوا أشد آراء ، وأعظم أحلاما ، وأوفر عقولا ، من تلك الطائفة الضعيفة العقول ، السخيفة الأحلام ، الذين رأوا أمير المؤمنين عليه السلام في آخر أيامه ، كعبد الله بن سبأ وأصحابه ، فإنهم كانوا من ركافة البصائر وضعفها على حال مشهورة ، فلا عجب عن مثلهم أن تستخفهم المعجزات ، فيعتقدوا في صاحبها أن الجوهر الإلهي قد حله ، لاعتقادهم أنه لا يصح من البشر هذا إلا بالحلول ، وقد

قيل : إن جماعة من هؤلاء كانوا ، من نسل النصارى واليهود ، وقد كانوا سمعوا من آبائهم وسلفهم القول بالحلول في أنبيائهم ورؤسائهم ، فاعتقدوا فيه عليه السلام مثل ذلك . ويجوز أن يكون أصل هذه المقالة من قوم ملحدين أرادوا إدخال اللاحاد في دين الاسلام ، فذهبوا إلى ذلك ، ولو كانوا في أيام رسول الله صلى الله عليه وآله لقالوا فيه مثل هذه المقالة ، إضلالا لأهل الاسلام ، وقصدا لإيقاع الشبهة في قلوبهم ، ولم يكن في الصحابة مثل هؤلاء ، ولكن قد كان فيهم منافقون وزنادقة ، ولم يهتدوا إلى هذه الفتنة ، ولا خطر لهم مثل هذه المكيدة .

ومما ينقدح لي من الفرق بين هؤلاء القوم وبين العرب الذين عاصروا رسول الله ، أن هؤلاء من العراق وساكني الكوفة ، وطينة العراق ما زالت تثبت أرباب الأهواء وأصحاب النحل العجيبة والمذاهب البديعة ، وأهل هذا الإقليم أهل بصر وتدقيق ونظر ، وبحث عن الآراء والعقائد ، وشبه معترضة في المذاهب ، وقد كان منهم في أيام الأكاسرة مثل ماني وديسان ومزدك وغيرهم ، وليست طينة الحجاز هذه الطينة ، ولا أذهان أهل الحجاز هذه الأذهان ، والغالب على أهل الحجاز الجفاء والعجرفة وخشونة الطبع ، ومن سكن المدن منهم كأهل مكة والمدينة والطائف فطباعهم قريبة من طباع أهل البادية بالمجاورة ، ولم يكن فيهم من قبل حكيم ولا فيلسوف ولا صاحب نظر وجدل ، ولا موقع شبهة ، ولا مبتدع نحلة ، ولهذا نجد مقالة الغلاة طارئة وناشئة من حيث سكن علي بالعراق والكوفة ، لا في أيام مقامة بالمدينة ، وهي أكثر عمره. فهذا ما لاح لي من الفرق بين الرجلين في المعنى المقدم ذكره). (ابن ابي الحديد ، 1959م ، ج 7 ، ص 50-51).

لا شك ان الكثير من اصحاب النبي ، كانوا من اليمن ، وقسم من اهل الصفة يمينيين ، وقد تأثروا كثيرا بالأفكار الباطنية الغنوصية التي كانت قد سادت اليمن منذ انتشار المسيحية فيها ، ولعل طرق التجارة المارة باليمن من الهند ، دفعت الكثير من الدول آنذاك ، لاحتلال اليمن ، ومنها الفرس ، فقد استطاع الفرس ان يسيطروا على اليمن حتى مجيء الاسلام ، وهذا الامر من الاهمية التي تجعلنا نتصور كيفية انتشار الافكار الغنوصية في اليمن والتي انتقلت من الديانات الايرانية القديمة عبر بوابة الاحتلال الفارسي وكذلك الافكار الهندية عبر الاحتكاك التجاري .

في اليمن ، انن ، امتزجت الكثير من الغنوصيات القديمة المسيحية واليهودية والايرانية القديمة والهندية ، فضلا عن ظهور الديانات الاولى التوحيدية فيها ، (مثل آله سموي) ، ومن ثم

ما عرف بالرحمن . هذه الافكار جميعها نقلها اليمانيون معهم الى الاسلام، اختفت بعض الشيء عندما استطاع القيسية من الانتصار على اليمانية في سقيفة بني ساعدة ، ويعود اليمانية في بعض قبائلهم الى الارتداد ، وبقوة السلاح القيسي تحطم صخرة التحدي اليمانية ، ليعودوا الى الاسلام من جديد ، ليحملوا هذه المرة لواء الاسلام فيكونوا ناشرين له في بلدان الارض الواسعة ، اسلام تمتزج فيه افكار التراث الانساني القديم ، الغنوصي ، ليكون التأويل حاضرا في مبانيه الدينية . ولعل استقرار اليمانية في الكوفة ، كان سبب في انتشار افكار الغلو فيها ، اذ امتزجت افكار اهل اليمن مع الثقافات المختلفة التي كانت سائدة في العراق قبل الفتح ، والتي امتزجت فيما بعد بما يحمله اليمانيون معهم .

استطاع المختار ان يقنع الموالي في الكوفة من الانخراط في ثورته ، وقد نجح في تعبئتهم ، بعد ان شعروا انه بمقدوره ان يرفع عنهم ظلاماتهم ، وان يتناغم معهم في عدهم من الخط الاول في التعبئة ، مما اشعرهم بأهميتهم التي فقدوها على يد الامويين .

مثل الموالي نقطة تحول مهمة في الحركة الشيعية ، ودعما كبيرا على المستوى الاجتماعي لتلك الحركة . لم يكن الموالي على مستوى عالي في فهم الاسلام ، اذ حملوا معهم افكارهم الدينية والعقدية ، ذات الاصول البابلية القديمة ، واليهودية ، والزرادشتية الايرانية ، تلك الافكار التي كانت غريبة عن الاسلام المبكر ، فقد نجح الموالي في جعل التشيع حركة مرنة ، بعد ان اخذوا يدسون انفسهم فيه اعدادا وافكارا .

ان انهيار الدولة الساسانية في ايران دفع الكثير من الفرس الى الهجرة صوب المدن العراقية وكان للكوفة ، المدينة الابرز في العراق بعد الفتح الاسلامي ، النصيب الكبر من اولئك ، بما يحملون من ثقافات وتقاليد دينية ، وكان جلهم من الحرفين والتجار ، يضاف اليهم العبيد الذين جلبهم العرب الفاتحين من ايران ، ثم اعتقوا بعد ان اعلنوا اسلامهم ، كما ان المزارعين (من الملاك ، والزراع) الذين وجدوا ان الارض لم تعد حقلا اقتصاديا مربحا ممكن الاعتماد عليه في كسب العيش ، لا سيما بعد ارتفاع ضريبة الخراج ، فقد تركوا ارضهم ، للبحث عن عمل بديل في تلك الامصار ، فكانت تلك الفئات جميعها تلتقي في الكوفة ، لتشكل لها طبقة مستقلة في القبائل التي ارتبطوا بها بالمولاة .

وفقا لذلك يمكن القول ، ان تلك العناصر بما حملته من ثقافة وتقاليد دينية واجتماعية ، كانت جزءا من مجتمع تتلاقح فيه الافكار والثقافات ، في وقت لم يكن الاسلام غير كتاب الله واقول رسوله، ولم يكن للأفكار الفلسفية والكلامية حضورا في العقل العربي بعد .

المغيرة بن سعيد واثره في العقيدة الشيعية :

المغيرة بن سعيد البجلي ، من قبيلة بجيلة اليمانية ، وقيل ان بجيلة هي ام القبيلة ، وقد سميت هذه القبيلة باسمها ، وان بجيلة وباهلة اختان ، ولدتا قبيلتان عربيتان يمينتان . وقد انحدرت هذه القبيلة بعد الفتح العربي الاسلامي للعراق ، وسكنت الكوفة ، وكان عدد كبير من ابناءها من له شأن في الاسلام . والمغيرة بن سعيد احد أولئك البجليين الذين كان لهم بصمة لا تغفل في حركة التاريخ الاسلامي ؛ اذ استطاع ان يكون اراء ما زالت عالقة في اذهان الكثير ، وربما تسربت بفعل النقل المتأخر الى المدونة الروائية فنسجت خيوطها الفكرية ، واخذت لها المساحة الكافية لتكون واحدة من الاطر المرجعية في تشكيل العقل الاسلامي (الشيعي) .

يبدو ان المغيرة ابن سعيد يمتلك من الثقافة التي أهلتة ان يدلي بآرائه العقيدية التي ميزته عن غيره ، والتي يمكن القول انها مزيج من ثقافات الشرق الادنى القديم ، في عهد ما قبل الاسلام ، والتي يبدو منها انها مزيج من العقائد العرفانية للمانوية والصابئة . (دفتري ، 2012م ، ص134) فقد كانت نظريته العرفانية عن نشأة الكون ، هو الصراع الازلي بين ثنائية النور والظلمة ، والذي لا يكاد يبتعد عن عقيدة المانوية في صراع الخير والشر الازليان. (دفتري ، 2012م ، ص135) .

شكل المغيرة بن سعيد فريقا من الاتباع ودسهم بين اتباع الامام الباقر ، وكانت مهمتهم الاستماع الى ما يقوله الباقر من احاديث ، كما انيطت بهم مهمة اخرى ، هي اخذ كتب اتباع الباقر ، التي كانوا يدونونها ، فيدفعون هذه الكتب الى المغيرة ، فكان المغيرة يدس فيها الكفر والزندقة ، والحقيقة كان يضع فيها عقائد ليست من سنخ عقائد اهل البيت ، ثم يدفعها الى اصحابه ليقوموا بنشرها بين الناس ، وكانت تُسند الى الامام .(الطوسي ، 1404هـ ، ج2 ، ص491) .

وهذا الموضوع لعله من اخطر المواضيع في بناء العقل الشيعي ، اذ ان اغلب المباني العقديّة التي كانت تتشكل على وفق هذا النمط من الروايات والاحاديث ، وكانت اغلب عقائد الغلو تصل الى الناس عبر هذه البوابات التي تعمل بشكل واسع ومخطط له . وقد حدد ابن ابي الحديد النوايا التي دفعت المغيرة لذلك في قوله : (ثم ظهر المغيرة بن سعيد مولى بجيلة ، فأراد أن يحدث لنفسه مقالة يستهوي بها قوما ، وينال بها ما يريد الظفر به من الدنيا ، فغلا في علي عليه السلام ، وقال : لو شاء على لأحيا عادا وثمود وقرونا بين ذلك كثيرا) (ابن ابي الحديد، 1959م ، ج 8 ، ص 121). فكانت اطماع المغيرة في نشر مقالته هي الهدف الأهم في هذه القضية ، حتى انه جاء الى الباقر يوما طالبا منه ان يخبر الناس انه يعلم الغيب ، مقابل ان يطعمه العراق ، وقد زجره الباقر على قوله هذا) (ابن ابي الحديد، 1959م ، ج 8 ، ص 121) . ومع ان القول يحمل الكثير من الدلالات ، لعل ابرزها ان المغيرة يفكر من خلال معرفته بالغيب الى الحصول على مكاسب دنيوية مهمة ، اذ يمكن له ان يوهم الناس فيما بعد بالكثير من العقائد التي تجمع حوله الاتباع لينفذ مشاريعه التي يسعى لها . والحقيقة ان المغيرة لابد ان يكون شخصية مهمة في الوسط الشيعي وذات تأثير فاعل في اوساط المجتمع ، كما انه يمتلك العديد من المهارات التي اعطته الحق ان يقول للإمام انه سوف يطعمه العراق ، فهل كان يفكر بجمع الاتباع عن طريق منحه صفة معرفة الغيب ، ومن ثم يقوم بالثورة وبعدها يكون العراق طعمة للإمام ؟ هذا ما كان يدور في عقل المغيرة ، على ما اعتقد .

لم يكتفِ المغيرة بن سعيد بمراجعة الامام الباقر بعد ان زجره وانصرف عنه ، ان يبطل مشروعه ، انما اخذ يبحث عن رجل آخر من بني علي ينفذ له رغباته ، فيقول ابن ابي الحديد : انه أتى أبا هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية ، فقال له مقالته للباقر (وكان أبو هاشم أيدا) فوثب عليه فضربه ضربا شديدا أشفى به على الموت ، ثم ان المغيرة تعالج حتى شفى، ولم يكتفي بذلك ، فأخذ يبحث عن رجل علوي اخر ، فأتى محمد بن عبد الله ابن الحسن بن الحسن (وكان محمد سكيّتا) فقال له كما قال للرجلين ، فسكت الرجل فلم يجبه ، فخرج وقد طمع فيه بسكوته ، فأخذ يدعو له بأنه المهدي الذي بشر به رسول الله ، وأنه قائم أهل البيت ، ثم أخذ يدعي أن علي بن الحسين هو من أوصى إلى محمد بن عبد الله بن الحسن . ثم جاء الكوفة ، وكان مشعبذا ، فدعا الناس إلى قوله ، واستهواهم واستغواهم ، فاتبعه خلق كثير ، وادعى ، على

ان محمد بن عبد الله منحه الأذن في خنق الناس وإسقائهم السموم ، وبث أصحابه في الاسفار يفعلون ذلك بالناس ، فقال له بعض أصحابه : إنا نخنق من لا نعرف ، فقال : لا عليكم ! إن كان من أصحابكم عجلتموه إلى الجنة ، وأن كان من عدوكم عجلتموه إلى النار ، ولهذا السبب كان المنصور يسمى محمد بن عبد الله الخناق ، وينحله ما ادعاه عليه المغيرة) (ابن ابي الحديد، 1959م ، ج 8 ، ص 121).

لا نثق كثيرا بهذه الرواية وتفصيلاتها ولكنها بشكلها العام ممكن ان تكون مقبولة ، لكون التفاصيل في اغلب الروايات التاريخية قد لا تكون دقيقة ، وقد يتهم اغلب أولئك الذين لهم مذهب مخالف بتهم تعسفية في الكثير من الاحيان وقد يزداد عليه من الاعتقادات ما لم يفعلها او يعتقد بها . ويبقى المغيرة ممن اتفق عليه انه كان يبيت الغلو في الروايات وله طموحات واسعة اراد تحقيقها ، ربما كان ينطلق من جموح سياسي ليصل الى السلطة عبر تكوين اتباع باستخدام هذه الاساليب ، او ربما كان لديه انحرافات فكرية ونفسية كامنه في نفسه ، حاول ان يكون مميزا من خلال طرح افكار مختلفة فيها شيء من اثاره الانظار حوله .

ويبدو واضحا ان المغيرة لم يحصل على دعم يؤهله ان يكون ممثلا عن احد رؤساء البيت النبوي ، لذا استخدم الحيل والسحر ، على حد قول الطبري ، ثم أخذ يزعم ما ليس من قدرته ، ويعمل اعمال الشعوذة وبعض افعال السحر ، وكان يقول لو اردت ان احيي قوم هود او ثمود او قرونا بين ذلك كثير لأحييتهم ، وكان يخرج الى المقبرة ، فيتكلم بكلام الشعوذة فيرى مثل الجراد على القبور . (الطبري ، 1963م ، ج 5 ، ص 456) . ولعل هذا دفع بعض المؤرخين الى القول ان المغيرة ادعى النبوة والبعض اعتقد انه ادعى الالهوية . (الذهبي ، 1987م ، ج 7 ، ص 476-477) . ثم ان المغيرة ومعه بيان⁽⁸⁾ ، وستة نفر من اصحابه كانوا يدعون الوصفاء في الكوفة سنة (119هـ) ، ، ايام ولاية خالد القسري عليها ، وقد اخبر بخروجهم وهو على المنبر فخاف من ذلك حتى انه قال : اطعموني ماء ، حتى ان ابن نوفل الشاعر هجاه بقصيدة ، قال فيها :

وكنت لدى المغيرة عبد سوء تبول من المخافة للزئير

⁸ بيان بن سمعان النهدي التميمي : قال عنه الذهبي بيان الزنديق ، الذي قتله خالد القسري واحرقه بالنار ، ظهر بالعراق وقال بالهية علي بن ابي طالب ، وان جزء الهيا متحد بناسوته ، ثم من بعده بابنه محمد بن الحنفية ثم في ابي هاشم بن محمد بن الحنفية ثم من بعده في بيان نفسه ، وقد كتب كتابا الى الامام الباقر يدعوه الى نفسه وكان قد اعلن نفسه نبيا . ميزان الاعتدال ، ج 1 ، ص 357 ؛ المجلسي، بحار الانوار ، ج 25 ، ص 27 .

شرابا ثم بلت على السرير

وقلت لما أصابك اطعموني

وقد امسك به خالد القسري ومعه اصحابه ، وقتله شر قتلة ، اذ جيئ به وبيان في ستة نفر او سبعة ، وقد حضر خالد القسري تنفيذ الحكم ، اذ أمر المغيرة ان يمسك طنا من القصب ويحضنه ، وبعد ان رفض انهالت عليه السياط ، فأخذ القصب وأحتضنه فشد عليه ، ثم صب عليه النفط ، ثم الهبت فيهما النار ، فاحترقا (الطبري، 1963م، ج5، ص457) .

مذهبه وآراءه وتأثيراته على العقيدة الشيعية :

تناولت المصادر الاولى شخصية المغيرة واره العقيدة وجاءت هذه الآراء مختلفة فقد قيل انه ادعى النبوة . ((الذهبي ، 1987م ، ج7 ، ص476-477) . وقيل انه كان يؤله علي ، وقيل انه يقول عن اهل البيت انهم يعلمون الغيب ويدهم مقاليد الاشياء . وعند الاطلاع على هذا التناقض نجد ان الكثير من هذه الرواية لم تكن دقيقة في اعطاء صورة واضحة عن ما كان يريد المغيرة ايصاله الى اتباعه ، اذ ليس من المعقول ان يكون الرجل قد ادعى النبوة في الوسط الاسلامي المشحون بالولاء للإسلام ونبوة محمد ولم يكن العهد ببعيد عن الرسالة المحمدية . فكيف يجرى احد على ذلك مع ان المسلمين جميعا يعتقدون بخاتمة الرسالات . ولهذا نعتقد ان هذه العقيدة فيها تعسف واضح بحق الرجل وهي تتنافى تماما مع الاعتقاد بأن الامام علي يملك الاستطاعة لإحياء الموتى كعاد وثمود والاقوام البائدة . الا اذا كان يعتقد بألوهية علي من باب الغلو الذي انتشر في الكوفة وقتها . وانه نبي علي المبعوث ، عندها فقط يمكن القول ان هذا الادعاء مقبول على حذر . والحقيقة ان الخلافات المذهبية والسياسية اضاعت علينا الكثير من الحقائق التاريخية وقلبت الحقائق وصار من الصعب الركون الى رأي بعينه والجزم بصحته . فالرجل ربما كان مغاليا في علي واهل البيت ، والغلو ظاهرة كان لها حضور واضح في الكوفة ، وهي ظاهرة اعتقادية سادت الاوساط الشعبية حيث اخذ بعض الناس يرتفعون في اهل البيت ليخرجوهم من كونهم بشر الى كائنات سماوية ، ولهم القدرة على الاحياء والاماتة والرزق والمنح والمنع وانزال العقوبات السماوية وغيرها . ولعل الجذور الثقافية لمجتمع الكوفة كان يسمح بروج مثل هذه

الافكار في الوسط الشعبي ، وكان من السهل على من يمتلك قدرة في التأثير ان يستميل اهله لصالحه او على اقل تقدير ان يجمع له اتباع يؤمنون بأفكاره التي لم تكن غريبة الى حد ما .

فالعقيدة النبوة التي نعت بها البعض يبدو لي انها لم تكن من ادعاءات المغيرة ، اما الغلو فقد يكون هو العقيدة التي نادى بها المغيرة وعمل على بثها واشاعتها في اوساط الكوفة ، مدفوعا بحماسة وطموح شخصي ، او ازمة نفسية وفكرية كانت ترافقه يحاول اخفاؤها من خلال افكاره الغالية في علي واهل بيته . ولعل ما يؤيد ذلك قول الاعمش الذي قال: (اول من سمعته ينتقص ابا بكر وعمر) (الذهبي، 1348هـ ، ج 4 ، ص 161). ففي قول الاعمش اشارة واضحة على ان الرجل كان يغالي في علي ، ويقدمه على الصحابة ، وهذا يجعلنا نعتقد ان المصادر الاولية كانت تشن عليه حملات تحط منه وتزور اعتقاداته . فقد نقل ابن حجر قول الجوزجاني : (لم يكن في الكوفة ألّعن من المغيرة بن سعيد فيما يروي عنه من التزوير على علي وعلى اهل بيته وهو دائم الكذب عليهم) (الذهبي، 1971م ، ج 6 ، ص 77) . وهذا يتفق مع ما ذكرته المصادر الرجالية الشيعية من ان المغيرة كان يزور الاحاديث التي يصدرها اهل البيت ويدس فيها الكذب ويقوم بنشرها من خلال اتباع له . (الطوسي ، 1404هـ ، ج 2 ، ص 491) . وهذه هي حدود الاعتقادات التي كان ينشرها في ذاك الوسط الملتهب عقائديا حيث (اشعل النيران بالكوفة) (الذهبي، 1348هـ ، ج 4 ، ص 161) . كان متعصبا لعلي حد الافراط والغلو فقد سأله الاعمش (ما فعل حب علي ؟ قال في العظم والعصب والعروق) (الذهبي، 1348هـ ، ج 4 ، ص 161) . ولعل هذا الغلو دفعه ان يعقد لنفسه معتقدا يتلاءم مع افكاره ومزاجه النفسي . فكان يسند احاديثه الى الامام الباقر بعد ان يحرفها بحسب اعتقاده ، فما يقوله الباقر يصل الى الناس عن طريق اتباع المغيرة ، ليس اعتقاد الامام انما اعتقاد المغيرة ، ولعل هذه الاحاديث انتشرت في الناس وصار لها من المقبولية ، ثم انها مسندة للباقر ، فليس من السهل رفضها او التكرار لها ، وكان اغلبها ممن يرفع قدرة الامام الى قدرة الخالق ، ويمنحه التحكم في اسباب الكونيات .

هذا التسريب المخطط له من قبل المغيرة وفريقه ، في نشر احاديث اهل البيت بعد تحريف معناها ودلالاتها واحيانا الفاظها ، لاقى مقبولة من قبل الكثير من الشيعة دون علمهم ، الاكيد، انها خضعت للتحريف والتزوير، لذلك اختلطت تلك الاحاديث مع غيرها لتكوّن منظومة احاديث اعتقادية يتدين بها الكثير من الشيعة ، وربما بمرور الايام ، ومع تأخر التدوين ، صارت تلك

الاحاديث من ضمن تشكل العقيدة لدى الشيعة ، ثم تسربت الى المدونة الشيعة بعد التدوين ، لتأخذ موضعها من الاعتماد ، لصعوبة فرزها سيما وانها كانت موضوعة في سند معتبر .

ففي نص مهم يبين فيه الصادق كيف تسربت الاحاديث وصارت من حقائق المدونات الشيعية انه قال : (كان المغيرة بن سعيد يعتمد الكذب على أبي ، ويأخذ كتب أصحابه وكان أصحابه المستترون بأصحاب أبي يأخذون الكتب من أصحاب أبي فيدفعونها إلى المغيرة ، فكان يدس فيها الكفر والزندقة ، ويسندها إلى أبي ثم يدفعها إلى أصحابه ويأمرهم ان يثبتوها في الشيعة ، فكلما كان في كتب أصحاب أبي من الغلو فذاك ما دسه المغيرة ابن سعيد في كتبهم) (الطوسي ، 1404هـ ، ج 2 ، ص 491) .

ويمكن لنا ان نفكك هذا النص لنتبين اهميته على العقيدة الشيعية ، فالنص يؤكد اولا على فعل مخطط له من قبل المغيرة اطلق عليه الصادق بالتعمد (يعتمد الكذب على ابي) أي ليست القضية عفوية او سوء فهم من قبل المغيرة انما هو تعمد واضح وبتنسيق عالي . ثم انه يمتلك فريق متكامل لهذه المهمة ، وهذا الفريق لم يسفر عن نفسه او يظهر للناس انما فريق يعمل بسرية وحذر ، فهو مستتر مع الشيعة الآخرين لم يعلن عن اهدافه (وكان اصحابه المستترون بأصحاب ابي) . مهمة هذا الفريق هي أخذ الكتب التي تصدر عن الامام من اصحاب الامام الخلفاء الذين يأخذون عقيدتهم من الامام بشكل مباشر فيدونونها عندهم ، فهذا الفريق يبدو انهم كانوا موطن ثقة لدى اصحاب الباقر ، حيث يمكنهم من اخذ الكتب منهم ، دون ان يعرفوا ما يخبئون من نوايا ، فيضعونها بيد المغيرة الذي تبدأ مهمته بتحريف هذه الاحاديث .

ماذا كان يضع المغيرة في هذه الاحاديث ؟ ما ذكرته الرواية انها قالت : (يدس فيها الكفر والزندقة) ولعل هذه المفردات تحمل الكثير من الدلالات التي ربما فيها الكثير من الاختلافات عند العلماء⁽⁹⁾ . ثم ان المغيرة يسند هذه الاحاديث الى الامام الباقر ، وبعدها يقوم فريقه في

⁹ اختلفوا في تفسير الزنديق ف قيل : هو المبطن للكفر المظهر للإسلام كالمنافق ، وقيل : قوم من الثوية القائلين بالخالقين ، وقيل : من لا دين له ، وقيل : هو من تبع كتاب زردشت المسمى بالزند ، وقيل : هم طائفة من الروافض تدعى السبائية ، ادعوا بالوهمية علي بن ابي طالب ، وكان رئيسهم عبد الله بن سبأ وقد احرقهم الامام علي بالنار (العيني ، عمدة القاري ، ج 24 - ص 79) .

بثها في الناس ، فتلاقفها الاسماع وتبثها الاسن ، لتنتشر فتكون جزءا من المنظومة المعرفية للشيعه ، التي تشكل عقيدة الناس .

هذا الامر دفع الامام الصادق الى ان يضع معيارا لتقبل الحديث عنهم ، فقد اكد على عدم قبول حديثهم ما لم يوافق القرآن والسنة النبوية، او وجود شاهد من احاديث متقدمة ، لان المغيرة دس في احاديث الباقر ما ليس له. (الطوسي ، 1404هـ ، ج2 ، ص 489) . وهذا يعني ان الكثير من الاحاديث التي دسها المغيرة كانت تخالف القرآن والسنة النبوية ، وان الاحاديث لم تكن تخضع لضابطة قبل ذلك ، وان قبولها يتم على وفق سندها (للباقر) . مما دفع الصادق الى وضع تلك الضابطة معززا ذلك بقوله (اتقوا الله ولا تقبلوا علينا ما خالف القرآن والسنة) (الطوسي ، 1404هـ ، ج2 ، ص 489) .

والواضح من الروايات ان التيارات الفكرية المغالية لعبت دورا كبيرا في دس الروايات وتحريفها في عهود مختلفة من حياة ائمة اهل البيت ، فقد كان الامام علي بن موسى الرضا ، يرفض الكثير من الاحاديث التي ترده عن ابيه ، ويقول عنها انها من الكذب ، وينسب ذلك الى ابي الخطاب الذي كان يدس الكذب في احاديث الامام الصادق ، ثم ان الرضا يؤكد ان الدس ما زال مستمر حتى في ايامه في كتب الصادق من قبل اصحاب ابي الخطاب(الطوسي ، 1404هـ ، ج2 ، ص 489) . والحقيقة ان الشيعة لم يكن بمقدورهم آنذاك من فصل الاحاديث الصحيحة من الكاذبة ، لكونها تأتي مسندة الى الائمة من اهل البيت ، فيعرضونها على الامام الحاضر ليتبينوا منه صدقها من عدمه ، بعد ان يشعروا ان هناك تناقضا واضحا في الاحاديث بين الائمة انفسهم ، او بين احاديث الامام نفسه (الطوسي ، 1404هـ ، ج2 ، ص 490) .

والحقيقة ان الغلاة ارتفعوا بالائمة فوق مرتبة البشر، وأوكلوا اليهم الرزق والامانة والاحياء ، وشفاء الامراض ، ومعرفة الغيب وغيرها ، مما دفع الامام الصادق الى الوقوف اتجاه ذلك التيار الغالي الذي تزعمه العديد من الغلاة في الكوفة، فأعلن صراحة امام الناس ان الائمة بشر ، خلقوا كما خلق البشر الاخرين ، فقد قال الامام الصادق : (فو الله ما نحن الا عبيد الذي خلقنا واصطفانا ، ما نقدر على ضر ولا نفع وان رحمتنا فبرحمته ، وأن عذبنا فبذنوبنا ، والله مالنا على الله من حجة ، ولا معنا من الله براءة ، وانا لميتون ، ومقبورون ، ومنشرون ، ومبعوثون ،

وموقوفون ، ومسئولون ، ويلهم مالهم لعنهم الله فلقد آذوا الله وآذوا رسوله في قبره ... وها انا ذا بين أظهركم ، أبيت على فراشي خائفا وجلا مرعوبا ، يأمنون وأفزع ، وينامون على فرشهم ، وأنا خائف ساهر وجل أنقل بين الجبال والبراري ، أبرأ إلى الله مما قال في ... والله لو ابتلوا بنا وأمranهم بذلك لكان الواجب ألا يقبلوه فكيف ؟ وهم يروني خائفا وجلا ، استعدي الله عليهم وأتبرأ إلى الله منهم . أشهدكم اني امرؤ ولدني رسول الله وما معي براءة من الله ، ان أعطته رحمني وان عصيته عذبني عذابا شديدا أو أشد عذابه (الطوسي ، 1404هـ ، ج2 ، ص 491).

يرى ابن الاثير ، ان المغيرة كان يقول بالتجسيم ، وكان يصور الله على شكل رجل يضع التاج على رأسه ، وأن أعضائه على عدد حروف الهجاء ، ويقول مالا ينطق به لسان تعالى الله عن ذلك ، ويقول إن الله تعالى لما أراد أن يخلق تكلم باسمه الأعظم ، فطار فوق على تاجه ، ثم كتب بإصبعه على كفه أعمال عبادته من المعاصي والطاعات ، فلما رأى المعاصي ارفض عرقا فاجتمع من عرقه بحران ، أحدهما ملح مظلم، والآخر عذب نير، ثم اطلع في البحر فرأى ظله ، فذهب ليأخذه فطار ، فأدركه فقلع عيني ذلك الظل ومحقه فخلق من عينية الشمس وسماء أخرى، وخلق من البحر الملح الكفار ، ومن البحر العذب المؤمنين(ابن الاثير1966م ، ج 5 ، ص208) .

ان من المهم قوله ان كتب الفرق التي تناولت فرقة المغيرية ، لم تكن دقيقة في ذلك فقد نقل الشهرستاني عن البغدادي الذي بدوره نقل اخباره عن النوبختي قوله : بأن المغيرة بعد موت محمد بن علي الباقر ، قال بإمامة محمد بن عبد الله بن الحسن (النفس الزكية) ، وان الامامة لا تكون بعد الباقر في اولاده انما هي في المغيرة الذي يظل اماما حتى ظهور المهدي (محمد بن عبد بن الحسن ، ثم ادعى ان جبرائيل ينزل عليه بالوحي ، حتى ان اصحابه انقسموا بعد مقتل النفس الزكية الى فرقتين : فرقة قالت بكذب دعوى المغيرة بمهدوية محمد بن عبد الله ، وانه مات وهذا لا يمكن ان يكون ، وفرقة قالت بصدق دعواه ، وانه لم يموت وهو مستتر في جبل العلمية على طريق مكة والحجاز وسوف يظهر ليملأ الارض عدلا بعد ان ملئت ظلما(النوبختي ، 2012م ، ص107-109 ؛ البغدادي ، 1441 هـ ، ص58-59) . وعند الرجوع الى كتب التاريخ فإن هذه المقالة سوف تتساقط امام الرواية التاريخية التي تؤكد مقتل المغيرة سنة (119هـ) على يد خالد القسري والي الكوفة (الطبري ، 1963م، ج 5 ، ص456 ؛ ابن الاثير ، 1966م ، ج 5 ، ص208)،

اما ظهور محمد بن عبد الله (النفس الزكية) فقد كان سنة (145هـ) في المدينة وقد قتله ابو جعفر المنصور (الطبري ، 1963م، ج 6 ، ص 148). فكيف يكون للمغيرة ان يدعي ان محمد بن عبد الله بن الحسن اماما وهو متأخر عنه في الظهور ، ثم ان مقتل المغيرة يسبق النفس الزكية بست وعشرون عاما ، وهذا يجعلنا نعتقد ان مؤرخو الفرق والمذاهب لم يعتنوا كثيرا بدقة الخبر التاريخي ، وربما كان همهم منصبا الى اكثار الفرق ، حتى يصلوا بها الى ما يطابق الحديث الذي رواه عن رسول الله في انقسام المسلمين الى ثلاث وسبعون فرقة . مما يجعلنا نتأني كثيرا في رواياتهم وطبيعة الاخذ عنهم .

نخلص الى ان التيارات المغالية لعبت دورا كبيرا في ادخال الافكار والآراء الى منظومة التراث الشيعي بقصد او بدونه فقد تكون تلك الآراء تسربت عبر النقل غير الدقيق الى المدونة التراثية ، ووجدت لها مكانا تستقر فيه لتشكل عقلا يدافع عنها ويتبناها . مع التأكيد على دور الائمة في ايضاح هذا الامر ولعن تلك الآراء وبيان الموقف من اصحابها ، ووضع معايير الأخذ من تلك المقالات والافكار ، من خلال العرض على القرآن والسنة النبوية ، او البحث عن المصادق الذي يوافق ذلك . الا انه من الصعب القول ، ان تلك المعايير استطاعت ان تكون حاجزا مانعا لتسرب تلك الافكار ، لا سيما ونحن نجد ان جميع الائمة كانوا يتصدون الى تلك الآراء وهذا يجعلنا نعتقد انها انتشرت في الازمان اللاحقة حتى ان محاولات الائمة الدائمة يدل على انتشارها ومحاربتها . ولعل اصحاب الائمة أنفسهم كانوا يتناقلون تلك الآراء ويسألون الائمة عن مدى صحتها مما يؤكد انها كانت رائجة الانتشار والتنقل من قبل الشيعة ، فأن كان الخُص من الاصحاب بمقدرهم ان يسألوا الائمة عنها فأن العامة من الناس ربما كان يتناقلونها على انها صادرة من الائمة دون الاستفسار عن مدى وثوقها . وربما دونت وصارت جزءا من تلك المنظومة التراثية ، حتى احتاج الشيعة ، كما فعل السنة في الحديث ، الى تصحيح الروايات الصادرة من الائمة وظهرت مؤلفات رجال الحديث الشيعية التي تناولت التجريح والتعديل في روايات الشيعة الصادرة من ائمة اهل البيت .

المصادر والمراجع : - ابن الأثير ، عز الدين ابن الحسن بن أبي كرم (ت630هـ) .

1 . الكامل في التاريخ ، دار صادر (بيروت 1386هـ/1966م) .

- ابن أبي اصيبعة ، موفق الدين احمد بن قاسم الخزرجي (ت668هـ) .

2. عيون الانباء في طبقات الاطباء،تحق د . نزار رضا،مكتبة الحياة (بيروت د . ت).
- البغدادي ، ابو منصور عبد القاهر طاهر (429هـ)
3. الفرق بين الفرق ، مكتبة ابن سينا (مصر ، 1441 هـ) .
- الجاحظ ، ابو عثمان عمرو بن بحر (ت255هـ)
4. كتاب الحيوان ، البابي الحلبي (مصر ، 1965م) ط 2 .
- الجابري ، محمد عابد
5. العقل السياسي في الاسلام ، مركز دراسات الوحدة العربية (بيروت ، 2000م)
- ابن حجر ، أبو الفضل احمد بن علي العسقلاني (ت852هـ) .
6. فتح الباري في شرح صحيح البخاري ، دار المعرفة (بيروت ، د . ت) ، ط 2 .
7. لسان الميزان ، مؤسسة الاعلمي (بيروت 1390هـ/1971م) .
- ابن أبي الحديد ، عبد الحميد بن هبة الله بن محمد (ت655هـ)
8. شرح نهج البلاغة ، تحق محمد أبو الفضل ابراهيم ، البابي الحلبي
(مصر 1378هـ/1959م) .
- دفتري ، فرهاد
9. الاسماعيليون تاريخهم وعقائدهم، دار الساقى (بيروت ، 2012م)
- الذهبي ، شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان (ت748هـ)
10. تاريخ الاسلام ، تحق، محمد البجاوي ، دار المعرفة
(بيروت ، 1407هـ / 1987م).
11. ميزان الاعتدال ، تحق محمد البجاوي ، دار المعرفة (بيروت ، 1348) .
12 لسان الميزان ، مطبوعات الاعلمي ،(بيروت ، 1971م)
- الشهرستاني ، ابو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت548هـ) .
13. الملل والنحل ، تحق محمد سعيد كيلاني ، دار المعرفة (بيروت ، د . ت) .
- الطبري ، ابو جعفر بن محمد بن جرير (ت310هـ) .
14. تاريخ الطبري ، مؤسسة الاعلمي (بيروت . د . ت) .
- الطوسي ، ابو جعفر بن محمد بن الحسن (ت460هـ) .
15. اختيار معرفة الرجال ، تحق السيد مهدي رجائي (قم 1404هـ) .
- العيني ، ابو محمد محمود بن احمد (ت855هـ) .
16. عمدة القاري في شرح صحيح بخاري ، دار إحياء التراث العربي
(بيروت. 1422هـ).

-
- المجلسي ، محمد باقر (1111هـ) .
17. بحار الانوار ، تحق ، السيد ابراهيم الميناجي و محمد الباقر البهبوي ، مؤسسة الوفاء (بيروت ، 1403هـ / 1983م) .
- ابن النديم ، ابو الفرج محمد بن يعقوب (ت380هـ) .
- 18 . الفهرست ، دار المعرفة ، (بيروت ، 1997 م) .
- النشار ، علي سامي
19. نشأة الفكر الفلسفي في الاسلام ، دار المعارف (القاهرة ، 1977م) ط9
- النوبختي ، الحسن بن موسى
20. فرق الشيعة ، منشورات الرضا (بيروت ، 2012م) .
- هالم ، هاينس
21. الغنوصية في الاسلام ، دار الجمل (بيروت ، 2010م)
- ياقوت الحموي ، شهاب الدين ابو عبد الله (ت626هـ) .
- 22 . معجم البلدان ، دار إحياء التراث العربي (بيروت 1399هـ/1979م) .